أدارت إرمنجارد بصرها في أرجاء غرفة العلية يخالجها شيء من الخوف والفضول في الوقت ذاته، ثم سألت سارا: «كيف تطيقين العيش هنا؟»

أدارات سارا بصرها أيضًا في أرجاء الغرفة، فرأت أنها بدأت تعتاد على المكان بالفعل.

أجابت سارا: «أحاول أن أتخيل أنني أقطن مكانًا آخر فحسب. لم أستطع بعض الوقت أن أمارس التخيل بصفة عامة أو أن أروي القصص، حتى بيني وبين نفسي.» أومأت سارا بطريقة جادة، ثم قالت: «لكن كل شيء آخذ في العودة إليّ الآن تدريجيًّا.»

أخبرت سارا إرمنجارد كيف أنها هي وبيكي وإيميلي سجينات في سجن الباستيل، فانجرفت إرمنجارد لتوها في بحر خيال سارا. لقد افتقدت كثيرًا القصص التي تقصُّها سارا على مسامعها.

فطلبت منها: «من فضلك أخبريني بالمزيد عن سجن الباستيل. أيمكنني أن أتسلل إلى هنا ليلًا من وقت لآخر عندما تكون الأجواء آمنة، وأزورك.»

أخبرتها سارا أنه بمقدورها فعل ذلك إذا توخت الحذر الشديد.

لكن فجأة رأت الفتاتان مقبض الباب يُدار. تساءلتا في قلق عمن يكون القادم. هل الآنسة منشن؟ أم الآنسة أميليا؟ هل واحدة من الفتيات الكبار، مثل لافينيا، التي ستشي بهما قطعًا؟ لكن عندما فُتح الباب، تبين أنها لوتي الصغيرة. يبدو أن هذا اليوم هو يوم مليء بالزوار.

ومع أن سارا كانت مرتبكة، فإن زيارة ابنتها «بالتبني» لم تثر دهشتها تمامًا. لكن لوتي، التي كانت في السابعة من عمرها فحسب، ارتبكت كثيرًا بسبب التغيير المفاجئ الذي طرأ على أمها التخيلية، وقد حاولت أن تصل إلى سارا كي تستفهم منها إلى أين أخذوها ولماذا.

رفضت سارا أن تخبرها، لكن لوتي كانت طفلة عنيدة. وكانت قد استرقت السمع إلى نميمة الفتيات الكبريات حول سارا. وفي هذه الأمسية شرعت في رحلة الاستكشاف؛ فارتقت سلمًا لم تكن تعلم بوجوده من قبل؛ صعدت درجات كثيرة للغاية حتى إنها ظنت أن رجليها سوف تنفصلان عن جسدها، إلى أن بلغت العلية ورأت الضوء المتسلل من تحت باب غرفة سارا.

في بادئ الأمر غمرتها الفرحة الشديدة لعثورها على سارا، لكن عندما وقعت عيناها على غرفتها الخاوية القميئة، عبس وجهها. صاحت لوتي في خوف: «سارا أمي!» وبدت

وكأنها ستهم بالبكاء وضرب الأرض مجددًا، وهو ما لم تفعله منذ زمن. قالت لوتي: «حتمًا أنتِ لا تعيشين هنا؟»

توسَّلت سارا: «أرجوكِ يا لوتي، لا تثيري جلبة وإلا سأُعنَّف بلا شك، كفاني التعنيف الذي يحل بي طوال اليوم.» حملت سارا نفسها على الابتسام، ثم استطردت: «فضلا عن أن الغرفة ليست بهذا القدر من السوء.»

سألتها لوتي في استنكار وهي تحدق حولها مرة أخرى ويظهر عليها الارتياب: «ليست بهذا القدر من السوء؟ ولِمَ لا؟»

أضافت إرمنجارد، وهي تبدو مرتابة مثل لوتي تمامًا: «نعم، بالضبط.» وقد نسيت تمامًا قصة سجن الباستيل المثيرة.

قالت سارا: «مبدئيًّا، من حسن حظي أنني أقطن علية ذات نوافذ، فليست كل العليات لها نوافذ كما تعرفان، علاوة على أنه بمقدوركما أن تشاهدا عبر هذه النوافذ شتى أنواع الأشياء التي لا تستطيعان أن ترياها من الأدوار السفلى.»

سألتها لوتي: «أي أشياء هذه؟»

أجابت سارا: «الأسقف الساحرة، والأسوار التي يغطيها السخام، والمداخن التي يتصاعد منها الدخان مموجًا في أشكال رائعة، والعصافير الجميلة التي تشقشق وهي تبحث عن فتات الطعام. وقطرات المطر الكبيرة التي تنهمر من السماء وتتلاطم بالأسقف المغطاة بأحجار الأردواز وكأنها قطع من الحلوى، إضافة إلى مغيب الشمس الرائع بلونيه الأحمر القاني والذهبي المتلألئين! وأيضًا السحب الصغيرة التي تشبه كومة الصوف الأبيض الناعم والتي تسبح مهرولة عبر السماء الزرقاء تركب أمواج الرياح.» ثم أشارت سارا نحو الخارج على المبنى المجاور، فأخذت لوتي وإرمنجارد تنظران إليه، فاسترسلت سارا: «وكذلك نوافذ العليات الأخرى مثل هذه النافذة القريبة، حيث يمكن أن تطل منها رءوس أناس آخرين في أي لحظة.»

انقطعت سارا عن الكلام، وأخذت تنظر هي أيضًا نحو نافذة العلية المجاورة، فوجدتها شديدة القرب لا يفصلها عنها سوى امتداد سطح المنزل، حتى إنه قد يمكن لشخص يحفظ توازنه جيدًا أن يسير بسهولة إليها. ومع أنها تمنت كثيرًا أن يأتيها عبر هذا السطح من يؤنس وحدتها، فإن أحدًا لم يفعل هذا.

استرسلت سارا محاولة أن تسترجع نبرتها الباعثة على البهجة: «غرفتي صغيرة للغاية ومرتفعة فوق كل شيء، فهي أشبه بالعش الجميل الذي يسكن أحضان الشجر.

وعندما أستلقي في فراشي وأطل عبر النافذة، أشعر وكأني أستطيع بالتأكيد أن ألمس السحب والنجوم.»

لم يساور الشك إرمنجارد في أن سارا تستطيع أن تفعل هذا.

همست لوتي: «وماذا أيضًا؟»

قالت سارا: «حسنًا، انظري إلى هذه المدفأة الصدئة، وتخيلي كم ستكون رائعة وجميلة إذا كانت مُلمَّعَة وموقدة بالنيران.» أطلقت سارا تنهيدة، وأغمضت عينيها، وقالت: «تخيلي أن هناك سجادة على الأرض ناعمة وزرقاء وسميكة على الطراز الهندي، وأريكة وثيرة مريحة في هذا الركن وعليها وسادات لنتكئ عليها. وتخيلي أن هناك مكتبة فوق الأريكة تعج بالقصص الرائعة، وسجادة من الفرو أمام المدفأة، ومصابيح، ورسومات على الجدار، وطعام دافئ شهي موضوع أمامنا كأننا في نزهة ...»

أنهت سارا كلامها (إذ أصبحت منهكة للغاية): «وتخيلي لحافًا ناعمًا دافئًا على السرير، أستلقي عليه وأنعم بمثل هذه الأحلام الرائعة!»

قطع صوت نبش أظافر مرتفع آتي عبر الجدران رحلتهن الخيالية.

فقالت لوتي وإرمنجارد في صوت واحد: «ما هذا؟»

ابتسمت سارا وقالت: «لا تقلقن، هذا ملكيسيديك، فأري المدلل.»

سألتها إرمنجارد في توتر وهي تُحكم لفَّ وشاحها الأحمر حولها: «فأرك المدلل «التخيلي»؟»

قالت سارا: «لا.» وعندئذ أخذت تشرح لهما كيف أنها أقامت في الأسابيع الماضية علاقة صداقة مع أحد الفئران عندما تأكد لها أنه لم يتبق لها أي أصدقاء في العالم، وقد أطلقت عليه اسم ملكيسيديك. وقد اكتشفت سارا أنه في غاية الخجل واللطف. وعلى نفس قدر خوف سارا منه كان هو أيضًا مرتاعًا منها، ولم يتطلب الأمر منها سوى بعض الفتات الفائض من المطبخ كي تكسب وُدَّه.

همست لوتي: «هذا يشبه القصص تمامًا.»

أجابتها سارا: «بالطبع، فكل شيء في الحياة هو قصة!»

وفيما كان ثلاثتهن مفتونات بملكيسيديك، لم يلاحظن أن ثمة رأس أخرى قد أطلت أخيرًا من نافذة العلية القريبة منذ بضع دقائق. كانت الرأس لخادم هندي الأصل، أسود الوجه، يعصب رأسه بعمامة بيضاء.

ولمّا كانت نافذتا العليتين مفتوحتين، استطاع الخادم أن يسمع كل ما قيل. ولمّا كان يخشى أن ينسى ولو حتى أحد التفاصيل الصغيرة، انكب على مجموعة من الأوراق يدون كل ما يتطرق إلى أذنيه.

ومع أن زيارة لوتي وإرمنجارد إلى سارا شددت من عزمهما، لم تستطيعا أن تجازفا بالمكوث وقتًا أطول من ذلك. وبعد أن عانقتا صديقتهما لتوديعها، تسللتا عائدتين إلى الطابق السفلي.

لكن سارا أخذت تكرر على نفسها: «كل شيء هو قصة.» وأخذت تحدق في أرجاء العلية مرة أخرى، وإذ بسحر قصصها التي كانت ترويها من أجل الفتاتين الأخريين يزول تمامًا. وعاد كل شيء قاسيًا جامدًا مرة أخرى؛ فعادت إيميلي مجرد دمية، وحتى ملكيسيديك لم يكن بمقدوره أن يريحها. تنهَّدت سارا، وقالت: «يا له من مكان موحش، إنه أكثر مكان موحش في العالم!»

ما زال الخادم يسترق السمع من العلية القريبة، ولم يكن في حاجة لأن يدون قولها هذا، فهو لن ينسى أبدًا مدى الوحدة والحزن اللذين تعيش فيهما هذه الفتاة الصغيرة. بل إنها ذكَّرته بسيِّده الهندي الذي يرقد في الطابق السفلي، والذي يبحث عن فتاة صغيرة في عمر سارا. ورأى الخادم أن هناك الكثير من الأشياء التي تجمع ما بين هذه الفتاة وسيِّده، وفكَّر أنه ربما تكون هناك طريقة لمساعدتهما.

وقبل أن تأوي سارا إلى فراشها، طرقت برفق على الجدار ثلاث مرات؛ كانت هذه الشفرة السرية التي اتفقت عليها مع بيكي ومعناها: «أيتها السجينة، هل أنتِ موجودة؟»

وبعد دقيقة من المفترض أن ترد بيكي بثلاث طرقات مثيلة من الجانب الآخر من الجدار معناها: «أجل، أنا هنا، وكل شيء على ما يرام.» ولم تكن الفتاتان على ما يرام قط، لكنهما كانتا تقولان هذا على كل حال.

وعندئذ تردُّ سارا بطرقة رابعة معناها: «إذن لنخلد إلى النوم في سلام يا رفيقة الكفاح، طابت ليلتك.»

في الصباح التالي، كانت سارا تطل من النافذة على أمل أن تلمح شروق الشمس عندما صدر صوت صرير طريف من مكان قريب. بدا كصوت فأر عملاق يلهو في مكان ما فوق السقف. لكن عندما أطلَّت سارا لم تر فأرًا وإنما رأت قردًا يطل برأسه من نافذة العلية المجاورة المفتوحة مثل عفريت العلبة.

وخلف القرد، ظهرت فجأة مفاجأة أخرى؛ الوجه المبهج الباسم للخادم المعصوب الرأس بالعمامة البيضاء. تعجبَت: «قرد وخادم هندي … لا بد أنني أحلم! هل وافتني المنية وعدت إلى السماء في الهند؟»

وقبل أن تستطيع الإجابة عن تساؤلاتها، شاهدت هي والخادم القرد المرح وهو يهرول فوق السقف ويفتح نافذة سارا، وما إن دخل غرفتها حتى أخذ يثب في جنون في كل أرجاء الغرفة.

لكن سارا لم تفزع من وجود القرد، فقد اعتادت أن تحيط بها العديد من القِرَدة في الهند، وقد أضحكها هذا القرد الصغير النشيط. كانت تعلم أيضًا أن القرد لا بد أن يرجع إلى صاحبه، فاستدارت تجاه الخادم مبتهجة بأنها لا تزال تتذكر بعض اللكنات الهندية التي تعلمتها أثناء وجودها في الهند مع والدها، وسألته باللغة الهندية: «هل سيدعني أمسك به؟»

لم تر سارا مثيلًا لأمارات الدهشة أو البهجة التي علت وجه الخادم في تلك اللحظة.

أجابها الخادم في لكنة إنجليزية جميلة: «ربما لا.» ثم قدَّم نفسه لها منحنيًا انحناءة مهذبة راقية: «اسمي رام داس.» ثم أضاف: «إنه قرد لطيف، لكنه عنيد وجامح كالطفل الصغير، ويصعب الإمساك به. لكن هل تأذني لي بأن أعبر السقف وأقف عند حافة نافذتك وأناديه؟ فلعله يقفز إلى ذراعي مباشرة.»

التفتت سارا إلى القرد الذي كان يقفز في أنحاء الغرفة كأنه خائف، وقالت للخادم: «من فضلك افعل هذا.» إذ كانت تخشى أن يؤذي القرد نفسه.

وكان رام داس على حق؛ فما إن لمح القرد وجه سيده الوسيم والعمامة البيضاء حتى قفز إلى كتف سارا أولًا ثم خرج من النافذة، وقبل أن يغيب عن النظر التفت إلى سارا وأطلق صرخة صغيرة يعبر فيها عن شكره لها.

ردَّت سارا وهي تضحك: «يسرني أن أكون في خدمتك.»

لكن رام داس لم يكن سعيدًا؛ إذ استطاع بعينيه أن يلمح في نظرة واحدة عبر النافذة كآبة غرفة سارا التي بلغت أوجها؛ فليس بالأمر المضحك أن تُترك فتاة صغيرة لتعيش بهذه الطريقة. لكنه لم يفصح عن مشاعره الحقيقية أمام سارا، فعندما تحدث إليها بدا وكأنه يتحدث إلى ابنة أمير هندي.

اعتذر الخادم إلى سارا عن أي إزعاج قد يكون القرد سببه لها، ثم شرح لها سبب وجود القرد: «سيدي سقيم للغاية، وهذا المشاغب الصغير يبعث في نفسه الكثير من

البهجة.» وبعدها رفع يده ليحييها، وابتسم. ثم اجتاز السقف الأردوازي عائدًا إلى نافذته بخطى ثابتة كالقرد نفسه.

الفصل السابع

الشحَّاذة الصغيرة

بعدما رحل الخادم وقفت سارا في منتصف غرفتها تغمرها الذكريات. وكان الخادم هو من أعاد ذكرياتها إليها، لا سيما عندما تحدث إليها بلطف شديد وكأنها لا تزال أميرة صغيرة، ولا تزال تتمتع بالحق الإلهي في الوجود في هذا العالم.

ومع أنها قد استعادت قدرتها على ابتكار القصص الخيالية في الأيام الأخيرة الصعبة مما أنقذ حياتها بحق، فكَّرت سارا أن هناك «تخيلًا» واحدًا ما زالت لا تستطيع أن تنعشه من جديد؛ وهو كونها أميرة. رأت سارا أنه حتى أعظم خبير في الخيال لا يستطيع أن يحيي هذا الأمر لديها في ظل أوضاع حياتها الحالية.

لكن رؤيتها للخادم والقرد قد شدت من عزمها من جديد. فكرت سارا في نفسها: «حتى إذا كنت أميرة وهمية ترتدي ملابس بالية ورثَّة، يمكنني أن أظل أميرة حقيقية في داخلي.»

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، تعاملت سارا مع الآخرين على هذا الأساس؛ فكلما عاملها أحد بقسوة، ثبَّتت عينيها في عينيه، وابتسمت.

كانت تفكِّر في نفسها: «أنتم لا تعرفون أنكم تهينون أميرة. بمقدوري أن أزِجَّ بكم في السجن بإشارة من إصبعي، لكنني سأعفو عنكم فقط لأنني أميرة وأنتم كائنات بائسة حمقاء وضيعة لا تعرف أن تتصرف أفضل من ذلك!»

وفي إحدى المرات عندما كانت سارا مشغولة بتلك الأفكار، بدا أن الآنسة منشن تقرأ أفكارها؛ فلسبب ما (لم تعرفه الآنسة منشن نفسها)، اقتربت من سارا وضربتها بقبضة يدها على جانب رأسها على مرأى ومسمع من جميع الفتيات الأخريات.

قالت الآنسة أميليا في ذهول: «أختي!» فقد بدا لها أن سارا كانت واقفة لا تفعل شيئًا. علاوة على أن أختها لم تعتد ضرب سارا (وبيكي أيضًا) قط في الفصل المدرسي. قالت الآنسة أميليا: «لمَ فعلتِ هذا؟ هل تفوهت سارا بكلام مسيء؟»

اعترفت الآنسة منشن: «كلا، لكنها كانت تفكر في شيء ما، وأنا موقنة من هذا.» ثم ضيَّقت عينيها وهي تنظر إلى سارا شزرًا.

قالت الآنسة منشن: «كنتِ تفكرين في أمر وقح، اعترفي!»

أجابتها سارا بثبات: «أجل.»

صرخت الآنسة منشن: «وكيف تجرئين على التفكير؟»

كان سؤالها سخيفًا حتى إن عددًا من الفتيات ضحكن.

احمرَّ وجه الآنسة منشن خجلًا، فصحَّحت سؤالها: «أقصد فيم كنتِ تفكرين؟»

ظنَّت سارا أنه ربما يمثل خطرًا عليها أن تجيب الآنسة منشن، لكنها رأت أنه من واجبها أن تعطي إجابة أمينة.

استهلت سارا كلامها في تأنٍ وجديَّة: «كنت أتساءل عن شعورك إذا اكتشفتِ أنني أميرة حقًّا. أتساءل هل سيتملكك الفزع، أم ستندمين على أنكِ حبست أميرة حقيقية في عليتك، وكنتِ تسيئين معاملتها طوال الوقت.»

كانت جميع الفتيات الأخريات ينصتن عن كثب، لا يُسمع نفس إحداهن وهن يترقَّبن في شغف سماع رد الآنسة منشن.

صرخت الآنسة منشن وهي تلهث: «اذهبي إلى غرفتك الآن!» وشعرت وكأنها ستخرّ مغشيًّا عليها. كيف لمثل هذه الفتاة المغرورة الصغيرة أن تقهرها؟ اشتد غضب الآنسة منشن حتى إنها لم تعد تستطيع التحكم في أعصابها، فالتفتت إلى التلميذات، وصرخت فيهن: «وأنتن، أيتها الفتيات، انتبهن إلى دروسكن!»

همست جيسي إلى لافينيا التي بدت وكأنها دُهِشت من رد سارا مثل الآنسة منشن: «هل رأيتِ أمارات التشامخ على وجهها الصغير؟ لن أندهش على الإطلاق إذا اتضح أنها شخصية مهمة بالفعل! أكاد أتمنى أن تكون كذلك!»

في إحدى الأمسيات حدث أمر غريب للغاية. كان أطفال أسرة لارج في طريقهم إلى إحدى الحفلات. وفيما كانوا يستقلون عربتهم، مرت سارا بهم. صعدت فيرونيكا أوستاسيا لارج وروزاليند جلاديز لارج (كانت سارا هي من اختلق هذه الأسماء) اللتان ترتديان

ثوبين جميلين ووشاحين حول خصريهما إلى العربة، يتبعهما جاي كلارنس لارج البالغ من العمر خمس سنوات.

وكان كلارنس طفلًا جميلًا ذا وجنتين ورديتين نضرتين وعينين زرقاوين، حتى إن سارا نسيت أمر السلَّة التي بيدها وهيئتها الرثَّة الغريبة. وبدلًا من أن تسرع في طريقها، كما كانت تفعل مؤخرًا لدى وجودها وسط العامة، توقفت لحظة لتنظر إلى جاي كلارنس.

كان اليوم يوم عيد الميلاد، فأخذ جاي كلارنس يسترجع ما أخبره به أبواه من أن هناك أطفالًا فقراء في العالم لا يحظون بهدايا عيد الميلاد الجميلة، أو بعشاء عيد الميلاد الدافئ الشهي. وقد أحزنت هذه الأقوال جاي كلارنس وكدرته للغاية حتى إنه أقسم أن يعثر على أحد هؤلاء الأطفال الفقراء — مثل تلك الفتاة التي تقف أمامه — ويعطيه كل النقود التي يحتفظ بها في جيبه. لم يكن جاي كلارنس يدرك الكثير عن النقود، وقد ظن أن كنزه الصغير قد يثري أحدهم. ولأنه كان يتمتع بنفس كريمة، فقد سُرَّ بأن يفعل هذا، وبدت سارا الاختيار الأمثل.

ناداها جاي كلارنس: «يا صغيرتي المسكينة!» ثم وضع يده في جيبه ليُخرج نقوده وقال: «إليكِ مدخراتي، سوف أعطيكِ إياها.»

طرفت سارا بعينيها، وأدركت على الفور أنها بدت كالأطفال المتسولين المساكين التي كانت تراهم عندما كانت تعيش أفضل أيامها، فاحمر وجهها، ثم شحب.

ردت سارا: «لا، لا! أقصد، شكرًا لك، لكنني لا أستطيع أن أقبلها.»

لم يكن صوت سارا كصوت شحاذة صغيرة مسكينة حتى إن فيرونيكا أوستاسيا (التي كان اسمها الحقيقي جانيت) وروزاليند جلاديز (التي كان اسمها الحقيقي نورا) مالتا إلى الأمام كي تنصتا.

ترجاها جاي كلارنس: «أرجوكِ اسمعيني أيتها الشحاذة الصغيرة المسكينة.» وكانت شفته السفلي ترتجف، فكانت تشبه إلى حد ما شفة لوتي وهي ترتجف، وبدا أنه سوف يهم بالبكاء. قال الصبي: «بمقدورك أن تشتري طعامًا بهذه النقود. ألستِ جائعة؟»

لم يكن الصبي يعرف أن سارا تحتاج إلى الدفء والحياة السعيدة التي ينعم بها أطفال أسرة لارج أكثر من حاجتها إلى الطعام. لكن سارا كانت جائعة أيضًا، وكان جاي كلارنس حسن النية وطيبًا للغاية، فأدركت أنه ليس من دماثة الخلق أن ترده. لذا مدت يدها، وأخذت العملات، ووضعتها بكبرياء في جيبها.

عانقته سارا قائلة: «شكرًا لك يا جاي كلارنس. يا لك من فتى عطوف لطيف!» ثم أسرعت في طريقها مبتعدة عنهم وعيناها تزرف الدمع.

سأل الفتى: «لماذا نادتني باسم جاي كلارنس؟» (كان اسمه الحقيقي دونالد).

سألت جانيت: «ولماذا كانت تتحدث برقي جمّ؟ فلو كانت شحاذة لقالت: «أشكرك يا سيدي»، ولكانت انتزعت العملات، وربما انحنت تعبيرًا عن امتنانها.»

قالت نورا: «أظن أنها خادمة في هذه المدرسة الواقعة في الميدان، لكنها ليست متسولة بالطبع على الرغم من هيئتها الرثَّة.»

ومذ ذلك الحين فصاعدًا، باتت أسرة لارج شغوفة بشأن سارا تمامًا كما كانت هي شغوفة بشأنهم. ولمّا لم يكونوا يعرفون اسمها، صاروا يلقبونها: «الفتاة الصغيرة التي ليست شحَّاذة.»

الفصل الثامن

على الجانب الآخر من الجدار

في المطبخ كان أمرًا غريبًا أن الخدم يعرفون كل شيء وينهمكون في القيل والقال. وهناك عرفت سارا المزيد حول الرجل الهندي الذي انتقل للعيش في المنزل المجاور؛ لقد جاء من الهند، لكنه في حقيقة الأمر إنجليزي عاش في الهند فقط أثناء إدارته مشروعًا جديدًا هناك. وقد تدهورت حالته الصحية كثيرًا جرّاء إصابته بالحُمَّى الدماغية، ولم يتعاف تمامًا بعد. وقد بدا أنه فقد ثروته كلها، وكاد يموت من شدة الخزي، علاوة على مرضه.

بيد أن طالعه تبدَّل، وأُعيدت إليه كل ثروته، لكنه لا يستطيع أن يتحمل فكرة أنه كان السبب في خذلان رفيقه من المدرسة وابنته الصغيرة.

اقشعرَّ بدن سارا لدى سماعها تلك الكلمات.

كانت قصة الرجل الهندي تشبه كثيرًا قصة والدها، حتى إنها لو لم تره، لظنت أنهم يتحدثون عن أبيها. لكنها سُرَّت (على الأقل من أجل الرجل الإنجليزي) لأن قصته انتهت في النهاية إلى حال أفضل من قصة والدها. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، احتلَّ الرجل الهندي مكانة خاصة في قلبها.

وعندما كانت تُؤمر بالخروج ليلًا لجلب الأشياء، لم تعد تدمدم كما كانت من قبل، وإنما صارت الآن في قمة الحماس؛ إذ أتاح لها هذا فرصة أفضل لرؤية صديقها الخفي الجديد عبر نافذته المضيئة وهو يحدق في حزن إلى ألسنة النيران المضطرمة في المدفأة. وفي الليل كانت تستلقي في سريرها تتساءل حوله. تمنت أن يكون له ابنة صغيرة؛ «سيدة صغيرة» تدلِّلــه مثلما كانت تدلل والدها. آه، والدها العزيز! كأنَّ أزمنة قد مرت منذ أن كانت تجلس على ركبتيه تتحدث إليه في أمور هامة.

في نفس الوقت وعلى الجانب الآخر من الجدار في البيت المجاور، كان الرجل الهندي غارقًا في أفكاره أيضًا.

كان السيد كاريسفورد (كان هذا اسمه الحقيقي) يفكر في أنه يجدر به أن يكون أكثر سعادة؛ فهو رجل محظوظ على الرغم من كل شيء. فبعد فترة من النسيان الذي لحق به من جرّاء إصابته بالحُمَّى الدماغية، حيث ظن أنه فقد كل شيء، عادت إليه ثروته من جديد، وكان عقله يتماثل للشفاء أيضًا. وقد كوّن الكثير من الصداقات، من بينها صداقته بالسيد كارميشيل جاره (رب أسرة لارج وهذا اسمه الحقيقي). وكانت بنات السيد كارميشيل الصغريات، ولا سيما جانيت ونورا، مدعاة لسعادته. فكانتا تزورانه من حين لآخر، وتحضران له الحلوى، وتحكيان له القصص الممتعة حول يومهما.

وذات مرة قصَّت عليه جانيت ونورا قصة غريبة للغاية مع أنها كانت تخلو من المتعة؛ لقد أخبرتاه عن لقائهما بالفتاة الصغيرة التي لم تكن شحَّاذة. وحدث أن رام داس سمعهما، فأتى ليضيف إلى قصتهما.

قال رام داس: «لا بد أنها نفس الفتاة الصغيرة التي تعيش في علية المدرسة المجاورة!» وأخذ يصف غرفة سارا الخاوية بأرضيتها الخشبية المتآكلة، وطلائها المتساقط، ومدفأتها الصدئة الفارغة، وفراشها المتحجر الصغير.

سأل السيد كاريسفورد: «تُرى كم من خادمات صغيرات مسكينات في الخارج تنمن على مثل تلك الأَسِرَّة المتحجرة المريعة فيما نتكئ نحن في سلام على الوسادات المصنوعة من الريش؟» بدا أن هذه الفكرة تغرقه في مستنقع أعمق من الحزن.

ناشده السيد كارميشيل الذي كان قد جاء لاصطحاب بناته: «صديقي العزيز، لا يجب أن تفكر في مثل هذه الأمور، فأنت لا تزال واهن الصحة. من فضلك حاول أن تنال قسطًا من الراحة وألا تزعج نفسك هكذا.»

لكن السيد كاريسفورد لم يستطع التوقف عن التفكير في سارا وغرفتها المزرية في العلية.

وبعد انقطاع قليل عن الكلام قال في هدوء: «أتظن أن الفتاة الأخرى ...» (ثم أخذ يفكر في نفسه ويقول: «الفتاة التي لا أنفك عن التفكير فيها والبحث عنها.») «... يمكن أن تكون في مكان مشابه، وتعيش في مثل هذا البؤس والشقاء؟»

لم يعرف السيد كارميشيل بم يجيب. قطعًا كان يدرك ما الذي يقصده صديقه. لكن لم تكن هناك ردود شافية.

لقد أخبره السيد كاريسفورد قصة كابتن كرو وابنته بأكملها؛ فالسيد كاريسفورد كان قد ذهب إلى الهند كي يستهل العمل في مشرع تجاري مربح في منجم ماس، وعليه دعا رفيقه القديم في غرفة المدرسة، كابتن رالف كرو، ليشاركه.

سار كل شيء على ما يرام إلى أن خرّ كلاهما مريضًا بحُمَّى الأدغال التي تؤثر على الدماغ. وكانت الحمى قد أثَّرت أكثر في كاريسفورد، فأصابته بآفة الجنون حتى إنه كان على قناعة تامة أن عمله قد انهار. ووسط اضطراب عقله وخوفه الشديد من خسارة أمواله وأموال صديقه، لم يستطع أن يواجه صديق عمره، فولَّى الأدبار، وانتهى به الحال في إحدى المستشفيات حيث لم يفق من غشيته طيلة أسابيع، أو على الأقل كما قيل له.

وبالطبع عندما فاق من غيبوبته، كان أعز أصدقائه قد مات ودُفن بالفعل.

أخبر كاريسفورد السيد كارميشيل ووجهه مكسو بالألم: «مات وهو يظن أنني تسببت في فقره، ثم لذت بالفرار!»

لقد كانت قصة حزينة بالفعل، لكن هذا لم يكن أسوأ ما فيها، فكابتن كرو صديق كاريسفورد كان لديه ابنة صغيرة، ولقد دأب كرو على التحدث عن ابنته، وقد علم كاريسفورد أن الفتاة في مدرسة داخلية في الخارج تنتظر دعوة والدها كي تعود إلى الهند. كان هذا هو كل ما يعرفه عن الفتاة، فلم يكن يعرف المدينة أو حتى البلد التي تقع فيها المدرسة الداخلية. ربما تكون في باريس، أو لندن، أو أي مكان آخر في أوروبا.

والأدهى من كل هذا أنه لا يعرف حتى اسم الفتاة الصغيرة، فمتى أتى والدها على ذكرها أشار إليها باسم «السيدة الصغيرة». لا بد أن الفتاة في مكان ما تعاني البؤس والشقاء، وهو مكتوف الأيدي لا يستطيع أن يفعل شيئًا حيال ذلك.

قال السيد كارميشيل في محاولة للتخفيف عن صديقه: «أجل، من المؤسف والمخزي أن فتاة باريس لم تكن الفتاة المقصودة، لكننا لن نكف أبدًا عن البحث عنها. سوف نبحث عنها في كل الأرجاء، وسنعثر عليها. وفي غضون أيام معدودات سأتتبع الخيط الذي توصلتَ إليه وسأذهب إلى روسيا للبحث عنها في موسكو.»

صاح كاريسفورد المسكين وهو يمد يده ليمسك بيد صديقه: «أشكرك شكرًا جزيلًا، لو كنت صحيح البدن، لذهبت بنفسي ... لا بد أن أعثر على «السيدة الصغيرة». لا بد أن أعثر عليها!»

قال رام داس ناصحًا: «وحتى ذلك الحين، ربما يمكننا أن نساعد «السيدة الصغيرة» التي تقطن المدرسة المجاورة، ما رأيك يا سيدي؟»

أضاءت عينا كاريسفورد واعتدل في جلسته، وسأل: «ماذا تقترح؟»

ابتسم رام داس وأخرج مفكرة صغيرة، واقترب بمقعده من السيد كاريسفورد وقال: «حسنًا، مبدئيًّا، قد نحاول إعادة طلاء الغرفة وإضافة القليل من التعديلات.»

في ظهيرة اليوم التالي، وفيما كانت سارا تعمل بالخارج، كان ملكيسيديك مشغولًا هو الآخر، وكان عمله يتلخص في تمشيط غرفة سارا بحثًا عن أي فتات فائض سقط منها ليقتات به. وكان ملكيسيديك يدرك جيدًا أنه مهما كان قدر الطعام الذي تتناوله شريكته في الغرفة قليلًا، فإنها دائمًا تترك له قطعة صغيرة.

وربما لم تكن غرفة سارا ملائمة لفتاة صغيرة، لكنها كانت مناسبة تمامًا للفأر، إذ كانت الغرفة هادئة عادة.

لكن في هذا اليوم، كان هناك ضجيج وصخب شديدين؛ بدأ الأمر بصوت شيء يتحرك على السقف قادمًا من جهة النافذة، وبعدها صدر صوت عن فتح النافذة.

ركض ملكيسيديك خلف الجدار وأخذ يحدق من جحره الصغير، فرأى وجهين يطلان عبر النافذة تعلو كليهما أمارات الحذر والاهتمام. لقد كانا رام داس ومعه غلام آخر؛ سكرتير كاريسفورد. لكن بالطبع لم يكن ملكيسيديك يعرف ذلك. لذا سكن في مكانه بلا حراك، وأخذ ينتفض من الخوف كعادة الفئران!

لمح السكرتير، الذي تسلل عبر النافذة وراء رام داس، ذيل ملكيسيديك المرتجف، فهمس إلى رام داس في خوف: «هل هذا فأر؟»

رد رام داس: «أجل، لكن الطفلة لا تخشى منه، فهي صديقة الجميع.»

قال السكرتير: «يبدو أنك تعرف الكثير عنها.»

وافقه رام داس: «أعرفها تمام المعرفة؛ فعادة ما أراقبها من نافذتي كي أتأكد من أنها بخير، أراقبها في حزنها، وفي أفراحها المتواضعة، في بردها، وفي جوعها؛ أعرف متى يتسلل أصدقاؤها لزيارتها، ومتى يتركونها وحدها لتظل تبكي إلى أن تغط في النوم. ولأنني أستطيع أن أسمعها من حين إلى آخر عبر النافذة المفتوحة، فأنا أعرف الأشياء التي تتخيلها كي تتمكن من البقاء على قيد الحياة.»

حاول السكرتير جاهدًا أن يفهم فسأله: «وهل نحن هنا بسبب عالمها الخيالي هذا؟»

ابتسم رام داس، وقال: «بالضبط.»

ثم أخرج مفكِّرته مرة أخرى، وكان قد كتب بالفعل صفحات عديدة حول سارا منذ ذلك اليوم الذي استرق فيه السمع إليها وهي تخبر إرمنجارد ولوتي بكل شيء يمكن أن تئول إليه العلية إذا أطلقتا العنان لخيالهما فحسب.

وكان مما كتب: «سجادة ناعمة زرقاء سميكة على الطراز الهندي.» وكتب تحتها: «وأريكة وثيرة، وسجادة من جلد النمر أمام المدفأة، ومصابيح؛ ورسومات على الجدار.»

تعجب السكرتير وهو يجلس على فراش سارا، وقال: «يا له من فراش كريه! إنه صلب كالحجر، والبطانية تقيك بالكاد من البرد!»

رفع رام داس مفكِّرته، فكان مكتوبًا في نهاية إحدى الصفحات بالخط العريض: «فراش وثير؛ غطاء سرير حريري دافئ.»

سأل السكرتير: «أتظن حقًّا أن بمقدورنا أن نمنحها كل شيء تخيَلَته؟»

أجاب رام داس: «سوف نمنحها أكثر بكثير مما تتخيل أو تفكر، لقد وافق السيد كاريسفورد على أن يمول العملية السرية. لقد مرض حزنًا على ابنة كابتن كرو المفقودة حتى إنه مستعد أن يفعل كل ما بوسعه كي يساعد هذه الفتاة في الوقت الراهن.»

ابتسم رام داس لدى تذكره شعاع الأمل الذي عاد إلى عين سيده عندما كانا يتحدثان بشأن الخطة السرية، وقال: «سيكون هذا الأمر في مصلحة سيدي.»

سأل السكرتير: «وهل تظن أنه يمكنك فعل كل هذا وهي نائمة؟»

أكد له رام داس: «يمكنني أن أسير بخفة وكأن قدميّ مصنوعتان من القطيفة، علاوة على أن الأطفال ينامون نومًا عميقًا، حتى البائسين منهم.»

قال السكرتير: «عندما تستيقظ الفتاة ستظن أن ساحرًا قد زار غرفتها! مثل قصص «ألف ليلة وليلة»!»

وافقه رام داس الرأي، وبعدما دون بضع ملاحظات أخرى، تسلل كلاهما عائدين عبر النافذة في هدوء كما جاءا.

تنفس ملكيسيديك الصعداء، وبعدما تأكد له أن الغريبين قد رحلا، خرج من جحره مرة أخرى وأخذ يجري في أرجاء الحجرة على أمل أن يكون الغريبان المرعبان قد أسقطا بعض الفتات.

الفصل التاسع

ماذا تفعل الأميرة في موقف كهذا؟

أخذت أيام الشتاء تزداد قصرًا وبرودة حتى إن سارا كانت تزداد هُزالًا وإنهاكًا يومًا بعد يوم.

ولم يكن حال بيكي أفضل منها كثيرًا.

قالت بيكي في صبيحة أحد الأيام قبل أن تبدآ يومهما: «لولا وجودك يا آنسة، لماتت السجينة في الزنزانة المجاورة لكِ.»

وبعدها هبطت الفتاتان درجات السلم كي تستهلا عملهما الشاق الممل.

وكان على سارا أن تتم الكثير من المهام في هذا اليوم، ولأن الطاهية كانت متكدرة المزاج هذا الصباح، بدا أنها ستضطر أن تفعلها وهي خاوية المعدة.

كانت الشوارع غارقة في الضباب البارد الرطب، حتى إن ملابس سارا البالية سرعان ما ابتلت عن آخرها، وتسللت المياه الباردة إلى داخل حذائها المهترئ فأخذ يصدر صوتًا مزعجًا، وبدت الرياح كالسكّين تخترق جسدها عبر معطفها المهلهل الذي بات ضيقًا عليها.

فكّرت سارا في صمت: «آه يا بيكي، لعلي أنا التي سأموت اليوم.»

وإذ بعين سارا تقع على شيء يلمع تحت قدميها مباشرة في الوحل. ولمّا انحنت لأسفل كي تلقي نظرة عن قرب، تبين لها أنها بضع عملات بالفعل. ربما سقطت من ثقب في جيب شخص ما. التقطتها بيدها الحمراء الباردة.

قالت سارا لاهثة: «إنها نقود!»

وكان يقع في نفس الشارع على بعد مسافة قصيرة متجر لبيع المخبوزات، حيث تضع امرأة بدينة بهية الطلعة صينية من الكعك المحلى اللذيذ الطازج في نافذة عرض مضيئة.

كان أكثر ما تتمناه سارا هو أن تأخذ النقود وتشتري بها بعضًا من الكعك المحلى الطازج. وبعد أن أجرت بعض الحسابات في ذهنها، وجدت أنها قد تشتري أربع كعكات.

لكنها عبست، إذ شعرت أنه من الخطأ أن تستخدم مالًا قد ضاع من شخص آخر وقد يكون في حاجة إليه، فنظرت حولها لتبحث عن أي شخص لتسأله عن المال، لكن لم يكن أحد هناك، فقررت أن تسأل على الأقل المرأة في محل بيع المخبوزات إذا كانت هي من فقد هذا المال.

نظرت المرأة إلى سارا في استغراب.

ثم أجابتها: «يا إلهي! لا. هل عثرت عليه؟»

قالت سارا: «أجل، في الوحل.»

فأجابتها المرأة: «حسنًا، فلتحتفظي به، فهذا الشارع شديد الازدحام، ولن تكتشفي قط من الذي فقده.»

قالت سارا: «أعرف، لكنني فكرت في أن أسألك فحسب.»

قالت المرأة وهي تنظر إلى سارا في تقدير واحترام: «قليلون هم من يفعلون مثلك. هل ترغبين في شراء شيء؟»

أجابتها سارا: «أجل، أشكرك. أربع كعكات من فضلك.»

وكانت المرأة قد رأت أن سارا تحملق إلى الكعك في نهم شديد، وكأنها ستأكل مائة كعكة في قضمة واحدة كبيرة، لذا تعطَّفت ووضعت ست كعكات في الكيس بدلًا من أربع.

قالت سارا وهي تنظر إلى الكيس وقد لاحظت الخطأ: «طلبتُ أربع كعكات فحسب، من فضلك. لا أستطيع أن أدفع سوى ثمن أربعة.»

قالت المرأة: «لقد وضعت اثنتين مجانًا؛ فأنا موقنة أنك قادرة على التهامها كلها، ألستِ جائعة؟»

اغرورقت عينا سارا، وقالت: «أجل، أنا أتضور جوعًا. أشكرك شكرًا جزيلًا!»

بيد أنه فيما كانت سارا في طريقها إلى الخروج من المتجر اعترض طريقها شيء ما، أو بالأحرى شخص ما؛ فتاة صغيرة أكثر إثارة للشفقة من سارا نفسها، فتاة لا تزيد عن كونها كتلة من الملابس البالية ينتأ منها قدمان عاريتان صغيرتان حمراوان وملطختان بالوحل، إذ لم تكن ملابسها طويلة بما يكفي لتغطيتها. وفوق هذه الملابس، رأت سارا وجهًا متسخًا تبرز منه عينان جائعتان كبيرتان تشبهان صحن الفنجان، ورأسًا تعلوه كتلة متشابكة من الشعر، حتى إنها بدت مثل حيوان بري.